بعض ملامح
الدولة السعودية الأولى

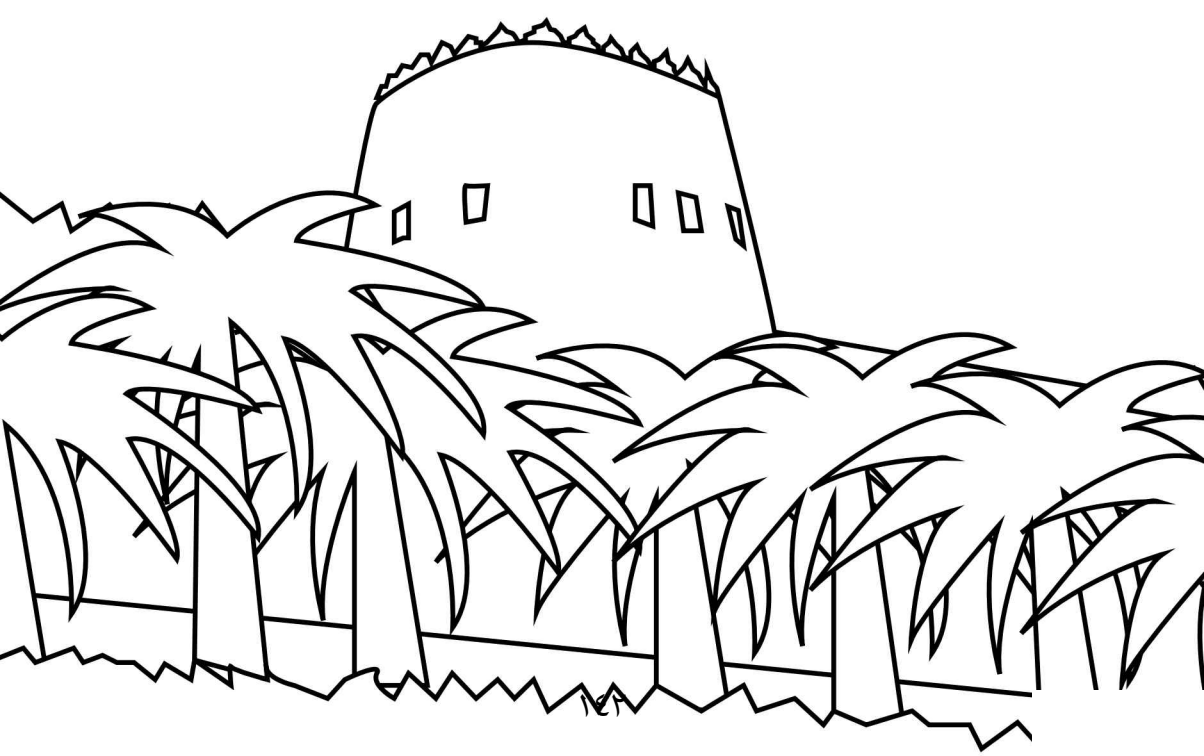

١ - الإدارة والحكم:

قامت الدولة السعودية الأولى على مبدأ واضح هدفه الأكبر جمع شتات البلاد على أساس من توحيد الله وإخلاص العبادة له. وقد نذر قادة تلك الدولة أنفسهم لذلك المبدأ؛ دعوةً إليه ودفاعًا عنه. وكانت إدارة شؤون الدولة تتم بتعاون وثيق، وانسجام تام، بين الشيخ محمد عبدالوهاب وقادة آل سعود. وكان متوقعًا أن يحدث الانسجام والتعاون بين ذلك الشيخ وأولئك القادة، الذين تدل أعمالهم على أنهم كانوا مقتنعين بصحة ما دعا إليه. بل إن عبدالعزيز بن محمد، الذي شهد الشيخ سبعة وعشرين عامًا من حكمه، كان على صلة به قبل قدومه إلى الدرعية[١]. وكان من المنتفعين بعلمه بعد استقراره فيها.

ومن الواضح أن كثيرًا من أعباء إدارة الدولة في مراحل تكوينها الأولى كانت تقع على كاهل الشيخ محمد بن عبدالوهاب. لكن الاستيلاء على الرياض سنة ١١٨٧هـ، كان بداية مرحلة جديدة تخلَّى فيها الشيخ عن إدارة الشؤون المالية لعبدالعزيز بن محمد بن سعود[٢]. على أنه ظَلَّ حتى وفاته، سنة ١٢٠٦هـ، المستشار الذي يعتمد على رأيه في الأمور؛ وبخاصة تلك التي يَترتَّب عليها مستقبل الدولة[٣].

---

(١) ابن غنَّام، ج١، ص٢٢٢. فقد طلب عبدالعزيز من الشيخ أن يفسِّر له سورة الفاتحة والشيخ لا يزال في العيينة.

(٢) ابن بشر، ج١، ص٢٧. وانظر صفحة ٧٤ من هذا الكتاب.

(٣) من ذلك أنه هو الذي أشار على عبدالعزيز بن محمد بقبول سعدون بن عريعر لاجئًا في الدرعية سنة ١٢٠٠هـ، وأنه أخذ البيعة لسعود بن عبدالعزيز ليصبح حاكمًا بعد أبيه سنة ١٢٠٢هـ. انظر ابن غنَّام، ج٢، ص١٢٥ و١٣٧.

وكان الحاكم السعودي يُلقَّب بالأمير حتى اتِّسعت الدولة، فأصبح من بين ألقابه الإمام[1]. وقد حَلَّ الابن الأكبر من أبناء الحاكم مَحلَّه في الحكم بعد وفاته، وذلك بولاية عَهدٍ منه في أثناء حياته[2].

وكان من أَهمِّ واجبات الحاكم السعودي الإشراف على شؤون الدولة بصفة عامة، بحيث يَتحقَّق تطبيق الشريعة، ويَحلُّ الأمن والاستقرار. وكان في طليعة من يستشيرهم في الأمور المُهمَّة الشيخ محمد وأبناؤه وأعيان الدِّرْعيَّة. ومن بين من يستشيرهم الحاكم أيضًا، أمراء المناطق ورؤساء القبائل؛ لا سيما فيما يَتعلَّق بأمور السلم والحرب[3].

وكانت الدولة السعودية مقسمة إلى مناطق متعددة يَتولَّى إمارة كل منطقة منها أمير مُعيَّن من قِبَل تلك الدولة. وكثيرًا ما كان أمراء المناطق من أُسَرٍ لها الإمارة في بلادها قبل قيام الحكم السعودي. وينطبق هذا على البادية أيضًا؛ إذ استمر رؤساء القبائل من الأسر القيادية فيها[4].

---

(١) لم يصف ابن غنَّام محمد بن سعود إلا بالإمارة. وكثيرًا ما تَحدَّث عن ابنه عبدالعزيز باسمه دون لقَب. وعند كلامه عما حدث سنة ١٢٠٢هـ قال (ج٢، ص١٣٧): «أمر.. محمد بن عبدالوهاب المسلمين أن يبايعوا سعودًا على الإمارة بعد أبيه». لكنه في حديثه عن عبدالعزيز، بعد وفاة الشيخ محمد سنة ١٢٠٦هـ، كثيرًا ما وصفه بالإمام. أما الشيخ عبدالرحمن بن حسن فقال: إن عبدالعزيز بن محمد بن سعود لم يكن يُسمَّى إمامًا في حياته، وإنما حدثت تسمية من تولَّى إمامًا بعد وفاته. انظر: **الدرر السنية في الأجوبة النجدية**، جمع عبدالرحمن بن قاسم، الطبعة الثانية، الرياض، ١٣٨٥هـ، ج٤، ص٣٤٠. وفي وثيقة كتبها الشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، سنة ١٢٢١هـ، وصف الحاكم سعود بن عبدالعزيز بالأمير. انظر: آل عبدالقادر ج٢، ص٦٩. على أن ابن بشر، الذي وُلِد بعد وفاة محمد بن سعود بـ ٣١ سنة، أطلق لقب الإمام على كل حكام الدولة السعودية الأولى.

(٢) نصت المصادر على ذلك بالنسبة لسعود، وهو ظاهر عبارة ابن بشر بالنسبة لكل من عبدالعزيز بن محمد وعبدالله بن سعود. انظر ابن بشر، ج١، ص٦٣، ١٠١ و٢٤١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١ /٢٧ و٢٢٦.

(٤) **لمع الشهاب**، ص٢٩.

ومما يلفت النظر أن قادة الدِّرْعيَّة لم يُعيِّنوا أمراء للمناطق من أفراد الأسرة السعودية، وإن كان لأولئك الأفراد جهود مُهمَّة في قيادة الغزوات[1]. ولَعلَّ من أسباب ذلك الرغبة في بقائهم في العاصمة للاستشارة.

وكان من واجبات أمير كُلِّ منطقة أن يعمل على تطبيق أوامر الشرع بين سكان منطقته، ويساعد عُمَّال الزكاة على جبايتها، ويُعدَّ الغزاة للإسهام بحروب الدولة لتوسيع نفوذها أو الدفاع عن كيانها. وكثيرًا ما عهد إليه بغزو الجهات القريبة منه[2].

وكان يوجد إلى جانب أمراء المناطق قضاة يختارون، عادة من ذوي الكفاءة العلمية والنزاهة الخلقية. وكانت مُرتَّباتهم من خزينة الدولة العامة. وقد أجمعت المصادر على أنهم كانوا عادلين في أحكامهم، حتى أصبحوا مضرب المثل في العدالة[3]. ومن بين أولئك القضاة، إضافة إلى قضاة الدِّرْعيَّة، عبدالعزيز الحُصَيِّن قاضي الوَشْم، وحمد العُرَيني قاضي سدير، ومحمد العوسجي قاضي الأحساء[4].

٢- الأمن والشؤون العسكرية:

ولقد أولى قادة الدولة السعودية الأولى الناحية الأمنية أَهمِّيَّة وبخاصة، وتكللت جهودهم التي بذلوها في هذا المجال بالنجاح الكبير، حتى ساد البلاد أمن

---

(١) ولعلَّ الرياض هي البلدة الوحيدة التي ولِّي عليها واحد من آل مقرن لا من ذرية محمد بن سعود. انظر حمد الجاسر، **مدينة الرياض**، ص٩٩.

(٢) من أمثلة هؤلاء حجيلان بن حمد، بالنسبة للمناطق الواقعة شمال القصيم، وهادي بن قرملة الذي كانت له جهود في الغزوات ضد الشريف غالب، وعبدالوهاب أبو نقطة، الذي كان له دور عظيم في الاستيلاء على الحجاز والمخلاف السليماني، انظر فقرة (و) الآتية عن بعض الأمراء والقادة المشهورين.

(٣) انظر - مثلاً - بوركهارت، **ملحوظات** ج٢، ص١٩٦.

(٤) ابن بشر، ج١، ص٢٣٨ - ٢٣٩ انظر فقرة (هـ) الآتية عن بعض العلماء والقضاة المشهورين.

لم تشهد له مثيلًا إلا في فترة قصيرة جدًّا من فجر التاريخ الإسلامي[١]. ولَعلَّ من أسباب ذلك النجاح إلقاء مسؤولية الجرائم على عاتق رؤساء القبائل، حينما يعتدي أَيُّ فرد من قبيلتهم على غيره، ومنع حماية مرتكبي الجرائم[٢].

ومن أَهمِّ ملامح الدولة السعودية الأولى أنه لم يَمرَّ عام واحد من بداية القتال بينها وبين خصومها سنة ١١٥٩هـ إلى نهايتها عام ١٢٣٣هـ إلا وفيه غزوة أو عدة غزوات؛ بعضها دفاعًا، وأكثرها هجومًا. وإذا كانت المنطقة قبل قيام تلك الدولة قد شهدت حروبًا بين إمارتها وقبائلها المختلفة فإن الحروب بعد قيامها ازدادت من حيث عدد المعارك. ومن حيث أعداد القتلى. لكن طبيعة الحروب تغيَّرت؛ إذ اتَّسمت بسمة الجهاد من قِبَل قادة الدرعية وأتباعهم.

ولم يكن هناك جيش دائم للدولة السعودية، وإنما كانت قواتها المحاربة تَتكوَّن بطريقة إلزامية أو تَطوُّعية حسب متطلبات الحال. فقد كان الحاكم، أو نائبه في الغزو، يطلب من أمراء المناطق ورؤساء القبائل، أو من بعض هؤلاء وأولئك، عددًا مُعيَّنًا من المقاتلين لِينضمُّوا إلى الغزو الذي يراد القيام به. وعلى كُلٍّ من يطلب منه ذلك أن يقوم بتنفيذه[٣]. وربما انضم إلى العدد المطلوب أناس متطوعون أقدموا على المشاركة في الغزو تَديُّنًا أو رغبة في الحصول على نصيب من الغنائم؛ وبخاصة أن أكثر الغزوات السعودية كانت ناجحة. على أنه كان هناك عدد من الجنود الدائمين؛ مثل الحرس الخاص للحكام في

---

(١) انظر أمثلة من استتباب الأمن لدى المصدر نفسه؛ ج١، ص١٦٨ - ١٧١.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٦٩.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٣١. من أحسن الكتابات عن النواحي الإدارية والاقتصادية في الدولة السعودية الأولى رسالة الدكتوراه لمحمد الشعفي، التي قدمت إلى جامعة ليدز سنة ١٩٦٧م. وترجمة عنوانها: **الدولة السعودية الأولى في جزيرة العرب (مع إشارة خاصة إلى ملامحها الإدارية والعسكرية والاقتصادية) في ضوء المعلومات غير المنشورة من المصادر العربية والأوروبية**.

الدِّرْعيَّة وللأمراء في قاعدة كُلِّ منطقة من مناطق الدولة. وكان هناك عدد من الجنود الذين يقضون فترات تطول وتقصر حسب الظروف في أماكن مُعيَّنة؛ مثل المرابطين في الحصون المبنية قرب مدن لم يكن من السهل الاستيلاء عليها، أو المناطق التي لا تطمئن الدولة إلى ولاء سكانها.

وكان على كُلِّ منطقة أو قبيلة أن تُجهِّز أفراد غزوها بما يلزمهم من عتاد ورواحل وأطعمة تكفيهم المدة المتوقعة للغزو. لكن الدولة تساعد الغزاة إذا طالت مدة الغزو[١].

ومن الأساليب الناجحة التي اتَّبعها القادة السعوديون في أعمالهم العسكرية سرعة الحركة، وسِرِّيتها، وتضليل الخصوم، وبناء قلاع أو قصور قرب البلدان التي تطول مقاومة أهلها؛ وذلك لمضايقتهم من الناحيتين العسكرية والاقتصادية، حتى يضطروا إلى إعلان الولاء لهم[٢].

أما الأسلحة التي استعملها السعوديون، فمنها السيوف والرماح والخناجر والبنادق. ومع وجود مدافع لديهم غنموا بعضها من خصومهم، فإنهم لم يستفيدوا منها في غزواتهم التوحيدية[٣]. لكنهم استفادوا منها نوعًا ما في دفاعهم ضد الحملة العثمانية التي قام بها حاكم مصر[٤].

على أنه ينبغي أن يشار إلى أن الأسلوب الحربي الذي اتَّبعه القادة السعوديون، ونجح نجاحًا كبيرًا في مراحل تكوين دولتهم واتِّساعها، كان يحمل

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٣١؛ عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص٢٥٣.

(٢) من هذه القلاع أو القصور قصر الغذوانة قرب الرياض، وقصر البدع حول الدلم، والقصر الذي بناه أبو نقطة في نجران، انظر ابن غنَّام، ج٢، ص٥٣ و١٠٧؛ ابن بشر، ج١، ص٤٩، ٩٠.

(٣) يذكر ابن بشر، (ج١، ص٢٣١) أنه كان لدى سعود ستون مدفعًا.

(٤) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٣.

في طياته بعض الجوانب الضعيفة. ذلك أن من انضم إلى الدولة وحارب معها زمن انتصاراتها على القوى المحلِّية من غير اقتناع بالدعوة التي قامت عليها سرعان ما أصبح عامل هدم خطير لكيانها حينما تَعَّرضت لهجوم خارجي بدت بوادر تَفوُّقه عليها.

٣- النظام المالي:

وكان النظام المالي للدولة السعودية الأولى مشابهًا للنظام المالي للدولة الإسلامية في الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام. فقد كانت أهم مصادر الدخل:

أ-الزكاة:

وفي طليعة ما يُزكَّى الثروة الحيوانية كالإبل والغنم، والمحاصيل الزراعية من تمور وحبوب. وكان دخل الدولة من الزكاة يزداد بازدياد قوتها واتِّساع نفوذها، حتى بلغ قمته زمن الإمام سعود ابن عبدالعزيز[١].

ب- الغنائم:

وقد سبقت الإشارة إلى كثرة غزوات السعوديين وانتصاراتهم. وكانت الدولة تأخذ خمس ما يغنم من الخصوم بحرب. أما الباقي فَيوزَّع على أفراد الجيش المحارب وفق أحكام الشريعة[٢].

وإلى جانب الغنائم الفيء، وهو ما أُخِذ من الأعداء بدون حرب؛ مثل أملاك من هربوا من الرياض عند استيلاء عبدالعزيز بن محمد عليها. ويدخل الفيء كُلُّه إلى بيت مال الدولة[٣].

---

(١) انظر تفاصيل بعض مقادير الزكاة في المصدر نفسه، ج١، ص٢٣٢ - ٢٣٣. وقد قدَّر ما يأتي من مطير وهتيم وعنزة فقط بسبعين ألف ريال.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ١٥٠.

(٣) ابن غنَّام، ج٢، ص٨٦.

ج- العقوبات:

وهي متنوعة. منها النَّكال لنكث عهد أو مطاولة حرب[١]. ومنها المعاقبة على إخلال بأمن، أو عدم الوفاء بالتزامات التجنيد[٢].

أما وجوه الإنفاق فمن أَهمِّها:

أ- المتطلبات التي كانت ضرورية للحكم؛ مثل الهدايا والهبات والضيافة[٣].
ب- مُرتَّبات الولاة والقضاة وعمال الزكاة والحرس في العواصم والحصون العسكرية، والإنفاق الجزئي على الغزوات.
ج- مكافآت المعلِّمين وطلاب العلم[٤].
د- مساعدة الفقراء ومن تَحلُّ بهم كوارث[٥].

على أن مصادر الدخل فاقت وجوه الإنفاق العامة بدرجة كبيرة.

ولذلك فإن الدولة أصبحت غنية جدًّا؛ وبخاصة زمن الإمام سعود بن عبدالعزيز. واستطاع قادتها أن ينعموا بحياة التنعم المتناسبة مع ظروفهم الاجتماعية في تلك الفترة؛ مثل اقتناء المماليك والخيل وبناء القصور الفارهة نسبيًّا[٦].

---

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٦ - ٥٧ و٦٣.

(٢) ابن بشر، ج١، ص١٧١ و١٧٤.

(٣) يذكر ابن بشر (ج١، ص٢٣٠) أن خازن قصر الإمام يظهر يوميًّا للضيوف خمس مئة صاع من البر والأرز.

(٤) المصدر نفسه ج١، ص١٧٤.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص١٧٣ - ١٧٤.

(٦) يذكر ابن بشر (ج١، ص٢٣١) أن مماليك سعود بلغوا ألفًا ومئتين بين ذكر وأنثى. وأن عدد خيله بلغ ألفًا وأربع مئة. ويقول بوركهارت (**مواد لتاريخ الوهابيين**، ترجمة عبدالله العثيمين، الرياض، ١٤٠٥هـ، ص٣٧): إن خيله كانت ألفين).

٤- العلم والتعليم:

ولقد كان أمرًا طبيعيًّا أن تهتم الدولة القائمة على أساس من الدعوة الإصلاحية بالتعليم. وكان ذلك واضحًا في سيرة قادتها الذين حرصوا كل الحرص على حضور مجالس العلم، وتتلمذوا على العلماء المُتميِّزين. بل إن من أولئك القادة من كانوا لا يقتصرون على المناقشة العلمية، وإنما يُفسِّرون ما يقرؤه القارئ عليهم، ويوردون أقوال العلماء المختلفة حوله[١].

وقد بلغ من حرص قادة الدولة السعودية الأولى على التعليم أنهم كانوا يصطحبون معهم في الغزوات علماء يعقدون مجالس علمية ينتفع بها أفراد الجيش الغازي[٢]. وبجهود أولئك القادة، وإخلاص علماء البلاد، ازدهرت الحياة العلمية ازدهارًا عظيمًا، ووجدت في الدِّرْعيَّة بالذات مكتبات قَيِّمة ضَمَّت كتبًا كثيرة في موضوعات علمية مختلفة[٣].

وكان التعليم مُركَّزًا، بدرجة كبيرة، على التوحيد وما يَتعلَّق بالعبادة[٤]. لكن العلوم الشرعية الأخرى؛ مثل الحديث والتفسير والسيرة النبوية والفقه، نالت حظًّا وافرًا من الاهتمام.

وفي طليعة علماء تلك الفترة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأبناؤه وأحفاده وتلاميذه، الذين أضافوا إلى المكتبة العربية الإسلامية كثيرًا من الكتب القَيِّمة؛ لا سيما في مجال التوحيد والعقيدة.

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٢٩.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧ و٢٢٦.

(٣) بوركهارت، **ملحوظات** ج١، ص ٢٥٠ ويقول: إن سعودًا كان يملك أغنى مكتبة عربية حينذاك.

(٤) وكان هذا متوقعًا، لأن الدعوة الإصلاحية أساسها التوحيد.

ومن الواضح أن العلماء المشار إليهم قد درسوا قواعد اللغة العربية وأجادوها، لأن كتاباتهم توضح ذلك غاية التوضيح. لكن من اللافت للنظر أنه لم تحدث نهضة أدبية- لا شعرًا ولا نثرًا- تضاهي النهضة العلمية الشرعية أو تقرب منها. ومن اللافت للنظر، أيضًا أن ما أُثِر من الشعر العامي- القريب من الشعر بالفصحى في ألفاظه ومعانيه وفي أغراضه وبحوره- في تلك الفترة لم يصل إلى المستوى الذي كان عليه قبل قيام الدولة السعودية الأولى، ولا إلى ما وصل إليه بعد نهايتها؛ كثرةً وجودة[1].

٥- العلماء والقضاة:

كان على رأس علماء الدولة السعودية الأولى الشيخ محمد بن عبدالوهاب إمام الدعوة التي قامت على أساسها تلك الدولة، ومؤلف الكتب القَيِّمة الكثيرة في أصول الدين وفروعه. وقد برز في عهد الدولة المذكورة علماء أَجلَّاء أغلبهم تتلمذ على ذلك الشيخ الإمام، ونهلوا من نمير علمه الزلال. ومن أشهر هؤلاء:

أ- عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، الذي خلف أباه في الفتوى وإدارة الشؤون الدينية. وقد أَلَّف عدة كتب تَدلُّ على سعة علمه؛ لا سيما في مجال العقيدة. وكان مع سعود بن عبدالعزيز عندما دخل مكة عام ١٢١٨هـ. وقد دافع دفاع الأبطال عن الدِّرْعيَّة خلال حصار إبراهيم باشا لها. ثم أُخِذ مع من أُخِذَ من أسرته إلى مصر بعد نهاية الدولة السعودية الأولى، ومكث هناك حتى توفي عام ١٢٤٢هـ عن عمر يناهز السابعة والسبعين[2].

---

(١) كان من أبرز شعراء نجد قبل الدولة السعودية حميدان الشويعر، وجبر بن سيَّار، ورميزان بن غشام، وأخوه رشيدان. أما بعد الدولة السعودية الأولى فمن أشهر الشعراء عُبيد بن رشيد، وأخوه عبدالله، ومحمد القاضي، وتركي بن حميد، وراكان بن حثلين.

(٢) الشيخ البسام، ج١، ص٤٨ - ١٥٥.

ب- حسين بن محمد بن عبدالوهاب، الذي كان كفيف البصر نَيِّر البصيرة، وكان خطيب جامع الطُّرَيْف الكبير في الدِّرْعيَّة، كما كان أحد قضاة هذه البلدة. وقد توفي عام ١٢٢٤هـ[١].

جـ- سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب الذي وُلِد عام ١٢٠٠هـ، وتَفقَّه في الدين أصولًا وفروعًا، فألَّف كتبًا جيِّدة. وتولَّى القضاء في مكة فترة قصيرة. وقد وُشِي به عند إبراهيم باشا بعد استسلام الدرعية، فأحضره وأهانه، ثم أمر جنده أن يطلقوا عليه رصاصهم دفعة واحدة، ففعلوا، وتَمزَّق جسده إربًا[٢].

د- عبدالعزيز بن عبدالله الحُصَيِّن الذي وُلِد في القرائن سنة ١١٥٤هـ. ثم أَكبَّ على طلب العلم في الدِّرْعيَّة حتى أصبح عالمًا جليلًا. وقد أُرسِل إلى مكة لشرح ما كان يدعو إليه الشيخ محمد ابن عبدالوهاب سنة ١١٨٥هـ، ثم سنة ١٢٠٤هـ. وكان قاضيًا للوَشْم في عهود عبدالعزيز بن محمد وابنه سعود وحفيده عبدالله. وقد جَنَّب الله أهل شقراء بطش إبراهيم باشا بشفاعته لهم عنده. وكانت وفاته سنة ١٢٣٧هـ[٣].

هـ- عبدالرحمن بن نامي الذي وُلِد في العُيَينة، ولازم الشيخ محمد بن عبدالوهاب حتى أصبح فقيهًا لامعًا. ثم عُيِّن قاضيًا في مسقط رأسه، ثم في مكة فترة قصيرة. وأخيرًا عُيِّن قاضيًا في الأحساء. وقد قتله القائد التركي الذي أرسله إبراهيم باشا إلى الأحساء عام ١٢٣٤هـ[٤].

ح- حمد بن ناصر بن مُعمَّر الذي وُلِد في العُيَينة، ودرس على الشيخ محمد في الدرعية حتى أصبح عالمًا جليلًا. وقد ترأس وفدًا من العلماء إلى مكة

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٩٣ - ٢٩٨.

(٣) ابن بشر، ج١، ص١٠٦، ١٢٠، ٣٠٨، ٣١٠؛ الشيخ البسام، ج٢، ص٤٧٦ - ٤٨٢.

(٤) المصدر الأخير نفسه، ج٢، ص٤٣٢، وقد أشار إلى تقدير المكين لعدالته بوركهارت، **ملحوظات**، ج٢، ص١٩٦.

سنة ١٢١١هـ، وناظر علماء تلك البلدة في مجال التوحيد والعقيدة. وفي عام ١٢٢٠هـ حمل خطاب الصلح من الإمام سعود إلى الشريف غالب. ثم أصبح قاضيًا في مكة حتى وفاته فيها سنة ١٢٢٥هـ[١].

ط- حمد بن راشد العُرَيني. وقد تتلمذ على الشيخ محمد بن عبدالوهاب حتى نال من العلم ما أهَّله لتولِّي القضاء. فَعُيِّن قاضيًا لسُدَير في عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد[٢].

ي- عبدالعزيز بن سويلم وقد وُلِد في الدِّرْعيَّة، وتتلمذ على الشيخ محمد. ثم عُيِّن قاضيًا في بُرَيدة في عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد، وظَلَّ قاضيًا لها حتى وفاته فيها سنة ١٢٤٤هـ[٣].

ك- علي بن حمد بن راشد العُرَيني. وقد تتلمذ على علماء الدِّرْعيَّة الكبار، وأصبح قاضيًا للخرج. ولما استولى إبراهيم باشا على الدِّرْعيَّة قتله[٤].

ل- سعيد بن حجي، وقد درس على الشيخ محمد بن عبدالوهاب وعلماء الدرعية، وتَولَّى قضاء حوطة بني تميم وما حولها في عهدي الإمامين عبدالعزيز بن محمد وابنه سعود. وتوفي سنة ١٢٢٩هـ[٥].

م- عبدالله بن سليمان بن عُبَيد. وقد تعلَّم على أيدي علماء الدِّرْعيَّة. ثم تَولَّى قضاء جبل شَمَّر في عهدي الإمامين سعود بن عبدالعزيز وابنه عبدالله. ثم ولي قضاء سُدَير، وتوفي سنة ١٢٤١هـ[٦].

---

(١) الشيخ البسام، ج١، ص٢٣٩ - ٢٤٣.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٢٦٣.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص٧١٣.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٣.

(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص٥٥٠.

ن- محمود الفارسي. وقد تتلمذ على علماء الدِّرْعيَّة، ثم ولي قضاء القطيف في عهدي الإمامين سعود وابنه عبدالله[1].

س- قرناس بن عبدالرحمن. وقد وُلِد عام ١١٩٠هـ، ونشأ في الرس. ثم درس على علماء الدِّرْعيَّة وقد عُيِّن قاضيًا عند قبيلة حرب سنة ١٢٢٠هـ. وكان له دور كبير في صمود أهل الرس ضد قوات إبراهيم باشا. وقد تَولَّى قضاء القصيم. وتوفي عام ١٢٦٢هـ[2].

ع- غُنَيم بن سيف. وقد وُلِد في ثادق، ودرس على علماء الدِّرْعيَّة. ثم ولي قضاء عنيزة في عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز حتى توفي فيها سنة ١٢٢٥هـ[3].

ف- راشد السردي. وقد ولي قضاء حوطة بني تميم في عهد الإمام عبدالله بن سعود. ولما استولى إبراهيم باشا على الدِّرْعيَّة قتله[4].

٦- الأمراء وقادة الجيوش:

كان قائد الجيوش السعودية في الخمسة والعشرين عامًا الأولى من القتال بين أنصار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وخصومهم عبدالعزيز بن محمد بن سعود في أغلب الأحيان. ثم تلاه ابنه سعود؛ وبخاصة في الغزوات الكبيرة. وهناك عدد من أفراد الأسرة السعودية ذاتها قادوا بعض الغزوات والسرايا.

على أن أمراء المناطق ورؤساء بعض القبائل، وآخرين غير هؤلاء وأولئك، كانت لهم ريادة في قيادة الغزوات ومَدِّ الحكم السعودي وتثبيته. والحديث عن كل

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٣٨ و٢٨١.

(٢) الشيخ البسام، ج٣، ص٧٦٤ - ٧٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٧٥٣.

(٤) ابن بشر، ج١، ص٢٧٨ و٢٨١.

فرد من هؤلاء يطول. ولذلك فإن من المستحسن الحديث بإيجاز عن بعض الأمراء والقادة، الذين كان لهم أثر كبير في تاريخ الدولة السعودية الأولى؛ دفاعًا عنها، ومَدًّا لحكمها. وكان بعض أولئك الأمراء والقادة من الحاضرة، وبعضهم الآخر من البادية. لكن أكثرهم كانوا من الحاضرة على أَيِّ حال. ومن أشهر هؤلاء:

أ- سليمان بن عُفَيْصان. وقد وقف مع تلك الدولة ضد خصومها في منطقة الخرج بدءًا بسنة ١١٩٠هـ. ثم عُيِّن أميرًا على تلك المنطقة عام ١١٩٩هـ. وقاد عِدَّة غزوات في شرقي الجزيرة العربية حتى توفي عام ١٢٠٧هـ[١].

ب- إبراهيم بن سليمان بن عُفَيْصان. وقد ولي إمارة الخرج بعد وفاة أبيه، وقاد- مثل ذلك الأب- غزوات في شرقي الجزيرة العربية. وكان رئيس إحدى الحاميتين السعوديتين في الأحساء سنة ١٢١٣هـ. ثم عُيِّن أميرًا للإحساء عام ١٢١٩هـ. وبعد فترة عُيِّن أميرًا لعنيزة حيث توفي فيها سنة ١٢٢٩هـ[٢].

ج- فهد بن سليمان بن عُفَيْصان. كان أول نشاط مذكور له عندما أُرسِل إلى البحرين سنة ١٢٢٥هـ مديرًا لبيت المال. ثم تَولَّى إمارة الأحساء في عهد الإمام عبدالله بن سعود. وقد قتله قائد عسكر إبراهيم باشا مع من قتل من آل عُفَيْصَان في الدِّلَم جورًا سنة ١٢٣٤هـ[٣].

د- حُجَيلان بن حمد. وقد عُيِّن أميرًا لبُرَيدة وما يتبعها من بلدان القصيم سنة ١١٩٠هـ، فنجح في توطيد الحكم السعودي هناك. وقد قام بكثير

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٩٥ - ٩٧، ١٠٠ - ١٠٣، ١١١و ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٣٣ - ١٣٦، ١٥٩، ١٧٧، ١٨١، ٢٠٥، ٢٣٧ و٢٤١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٧ - ١٩٨، ٢٨١و ٢٩١.

من الغزوات لمصلحة ذلك الحكم ومَدِّ رقعته. وظَلَّ أميرًا نشِيطًا في غزواته حتى قضى إبراهيم باشا على الدولة السعودية الأولى، فأُخِذ إلى المدينة المنوِّرة سنة ١٢٣٤هـ حيث توفي هناك بعد وصوله إليها بقليل[١].

هـ- ربيع بن زيد. وكان رئيس المخاريم من الدواسر. قدم إلى الدِّرْعيَّة عام ١١٩٩هـ، وبايع قادتها. ثم أخذ ينشر مبادئ الدعوة بحماس في الوادي، ويحارب بشجاعة من يعارضها. وكان له مواقف مشهودة في الدفاع عن الأراضي السعودية، وتوسيع رقعة نفوذ آل سعود؛ وبخاصة في جهات عسير[٢].

و- عثمان المضايفي. كان صهرًا للشريف غالب، ثم اختلف معه، وانضم إلى آل سعود عام ١٢١٧هـ، فاستولى بمعونتهم على الطائف، وأصبح أميرًا لهم عليها. وقد ساهم في إدخال الحجاز كلها تحت حكمهم. ولما استولت قوات حاكم مصر العثماني، محمد علي باشا، على تلك المنطقة طاردته حتى قبض عليه أناس من المتعاونين معها، وأُخِذ إلى مصر، ثم إلى اسطنبول حيث قُتِل أواخر سنة ١٢٢٨هـ[٣].

ز- محمد بن مُعَيقل. بدأ نشاطه عام ١٢٠٥هـ عندما كُلِّف بتعقُّب جيش شريف مكة المنهزم. ثم قاد جيوش المناطق السعودية المتجهة إلى الجوف سنة ١٢٠٨هـ. وقاد جيشًا ضد قبيلة عُتَيبة سنة ١٢١٠هـ، كما قاد جيشًا مساندًا لهادي بن قَرْملة في السنة ذاتها. وفي سنة ١٢١١هـ

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص٨٣، ٩٤، ٩٨، ١٠٠، ١٣٠، ١٥٠، ١٧٧، ١٨٨، ٢٢٣، ٢٣٨، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٨١، ٢٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٩٧، ١٠١ - ١٠٢، ١٠٨، ١٣٥، ١٤٧، ١٤٩، ١٥١، ١٥٧، ١٧٧ و٢٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٥٦، ١٦٢ - ١٦٥، ١٧٧، ١٨٤، ١٨٨، ١٩٤، ٢٠٠، ٢١٤ - ٢١٧ و٢٣٧.

قاد الجيوش الموجَّهة لصد حملة ثُوَيني بن عبدالله، كما قاد جيشًا ضد جزيرة العمايرِ في السنة نفسها. ثم قاد جيشًا ضد آل خليفة سنة ١٢٢٤هـ[١].

ح- هادي بن قَرْملة. زعيم قبيلة قحطان. وقد وفد إلى الدِّرْعيَّة سنة ١٢٠١هـ، وبايع قادتها، فصدق معهم، وأبلى بلاءً حسنًا في المهمَّات التي كَلّفوه بها؛ وبخاصة في المعارك مع قوات أشراف مكة والمعارضين في جهات عسير. وقد وصل بغاراته إلى حدود حضرموت جنوبًا. وقُتِل في معركة وادي الصفراء التي حدثت بين طوسون وعبدالله بن سعود عام ١٢٢٦هـ[٢].

ط- عبدالوهاب أبو نقطة. وقد وفد إلى الدِّرْعيَّة مع أخيه محمد سنة ١٢١٥هـ، وعاهدا قادتها على السمع والطاعة. فبعث الإمام عبدالعزيز بن محمد معهما سَريَّة بقيادة ربيع بن زيد. وانتشرت دعوة الشيخ محمد في عسير. ولما توفي محمد أبو نقطة، سنة ١٢١٧هـ، أصبح عبدالوهاب أميرًا لتلك المنطقة. وكان له دور كبير في إدخال الحجاز وجازان تحت الحكم السعودي. وقد قاد غزوات كثيرة ضد خصوم ذلك الحكم. وقُتِل في معركة دارت بينه وبين الشريف حمود حاكم إقليم جازانَ سنة ١٢٢٤هـ[٣].

ي- طامي بن شُعَيِّب. وَلَّاه الإمام سعود إمارة عسير بعد مقتل عبدالوهاب أبي نقطة، فأبدى نشاطًا كبيرًا لمدِّ الحكم السعودي في ساحل اليمن،

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص١٠٩، ١٣٢ - ١٣٦، ١٤٢، ١٤٨ و١٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١/ ١٠٠، ١٠٧، ١١، ١٣٤ - ١٣٦، ١٤٩، ١٥١، ١٦٢ و٢١١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ١٧٧، ١٨٢ - ١٨٨، ١٩٤ - ١٩٥ و٢٣٧.

وقاد مقاومة باسلة ضد قوات محمد علي باشا في عسير كَبَّد فيها خصومه خسائر فادحة. لكن تلك القوات انتصرت آخر الأمر، وراحت تطارده. فاستقدمه حسن بن خالد إلى صبيا، ثم سَلَّمه لأتباع محمد علي سنة ١٢٣٠هـ، فأُخِذَ إلى مصر، ثم بعث به إلى اسطنبول حيث قُتِل هناك[١].

ك- مطلق المطيري. ظهر نشاطه القيادي سنة ١٢٢٤هـ عندما أُرسِل قائدًا للجيوش المتجهة إلى عمان، فَحقَّق نجاحًا كبيرًا، وظَلَّ قائدًا للجيوش السعودية هناك طوال بقية عهد الإمام سعود ابن عبدالعزيز. وقد قُتِل سنة ١٢٢٦هـ[٢].

ل- غَصَّاب العتيبي. بدأ نشاطه الواضح سنة ١٢٢٠هـ. وفي سنة ١٢٢٤هـ أُرسِل من الدرعية قائدًا لفرقة مختارة من الفرسان دعمًا لعبدالوهاب أبي نقطة ومن معه من السعوديين ضد الشريف حمود حاكم جازان. وكان مع القادة في جنوب الطائف ضد قوات محمد علي سنة ١٢٢٩هـ. ثم قاد المقاومة في منطقة تُرَبة تلك السنة. وكان رئيسًا للخيَّالة في الدِّرْعيَّة عندما حاصرها إبراهيم باشا عام ١٢٣٣هـ. لكنه آخر الأمر- ربما لخلاف مع الإمام عبدالله بن سعود- خرج من الدِّرْعيَّة، وقصد إبراهيم باشا المحاصر لها[٣].

م- مسعود بن مُضيَّان، عندما توفي أخوه بَدَّاي، سنة ١٢٢٠هـ، عَيَّنه الإمام سعود مَحلَّه في رئاسة حرب. وكان من الذين أمرهم ذلك الإمام بمنع أمير الحج الشامي، عبدالله العظم، من مواصلة السير إلى مكة خوفًا

---

(١) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٥، ٢٠٠، ٢٢٣، ٢٣٧، ٢٤٢ - ٢٤٨.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص١٩٦، ٢٠٣ - ٢٠٤، ٢١٩، ٢٣٧ و٢٨١.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص١٨٥، ١٩٤، ٢٢٢، ٢٤٣، ٢٧٣.

من أن يستعين به الشريف غالب ضد الحكم السعودي. وكان لمسعود دور بارز في معركة وادي الصفراء التي دارت سنة ١٢٢٦هـ، بين القوات السعودية بقيادة عبدالله ابن سعود وقوات محمد علي باشا بقيادة ابنه طوسون، وقد أخذه رجال حاكم مصر إلى القاهرة، وقتلوه فيها.

٧- نهاية الدولة السعودية الأولى:

سبق أن ذُكِر بأن الدولة العثمانية رأت في خروج الحجاز عن دائرة نفوذها ضربة معنوية موجهة لهيبتها في العالم الإسلامي، وأنها عقدت العزم على انتزاع تلك المنطقة من آل سعود والقضاء على دولتهم التي لم تقتصر على بسط حكمها على أكثر مناطق الجزيرة العربية، وإنما بلغت طلائع قواتها المتحفزة عدة أماكن في العراق والشام. وكانت تجربة العثمانيين في محاربة السعوديين عن طريق باشوية بغداد قد باءت بالفشل قبل بلوغ الدولة السعودية المستوى الذي بلغته بعد دخول الحجاز وعسير والمخلاف السليماني تحت حكمها. وكان آخر والٍ رأى السلطان العثماني أن يَكِل إليه محاربة الدولة السعودية هو محمد علي باشا حاكم مصر[١].

وتشير المصادر إلى أن أَوَّل أمر من الدولة العثمانية لمحمد علي بغزو السعوديين كان عام ١٢٢٢هـ[٢]. غير أن الغزو لم يبدأ إلا بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ. فقد رأى حاكم مصر ضرورة الإعداد الجَيِّد للحملة العسكرية،

---

(١) بعد أن أجلى العثمانيون الفرنسيين من مصر، سنة ١٢١٦هـ، دبَّ الخلاف بين الجيش وقادته بسبب تأخر المرتَّبات. ثم تطور الخلاف إلى حدوث فوضى في البلاد. فانتهز هذه الفرصة الضابط الألباني، محمد علي، ونهض لإخماد الفتن. وقد نجح في مسماه بمساعدة أعيان البلاد الذين رشحوه لولاية مصر. ووافقتهم الدولة العثمانية على ذلك عام ١٢٣٠هـ. ولقد حاول المماليك، الذي كان لهم نفوذ في الصعيد، الإطاحة به بمساعدة البريطانيين، لكنهم فشلوا.

(٢) عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص٢٩٨.

التي سيقوم بها لأن مستقبله في الحكم سيتأثر، بدرجة كبيرة، بنجاحه أو فشله في تلك الحملة. ومن الخطوات التي قام بها في هذا المجال بناء أسطول مُكوَّن من ثمانٍ وعشرين سفينة ومستودعات للأرزاق في السويس، والاتِّصال بالشريف غالب ليُرتِّب معه ما ينبغي اتِّخاذه من إجراءات. ورأى حاكم مصر، أيضًا ضرورة القضاء على خصومه في داخل البلاد قبل أن تَتحرَّك قواته إلى الجزيرة العربية، لئلا يُعرِّض مركزه للخطر أثناء غياب تلك القوات[1]. وكان آخر إجراء اتَّخذه ضد أولئك الخصوم غدره بزعماء المماليك والقضاء عليهم في حفلة إسناد قيادة الحملة المتجهة إلى الحجاز لابنه طوسون؛ إذ قتل من حضر منهم، ولم ينج من غدره إلا واحد هرب من القلعة[2].

وكان الجو في الحجاز مُهيَّأً لنجاح الحملة المصرية العثمانية. ذلك أن الشريف غالبًا لم يَنضمَّ إلى الدولة السعودية عن رضا واقتناع. وكان يَتطلَّع إلى اليوم الذي يَتخلَّص فيه من تلك الدولة[3]. وكان انقطاع الحج من الولايات العثمانية الغنية قد أَضرَّ ببعض التجار الحجازيين. كما أضرَّ ببعض زعماء القبائل الذين كانوا يأخذون إتاوات على قوافل الحجاج. ولهذا فإن الفئات التي لها النفوذ الأكبر في المجتمع كانت توافق زعامتها السياسية التقليدية في المشاعر غير الوُدِّية تجاه الحكم السعودي.

وبعد أن اطمأن محمد علي إلى وضعه الداخلي، واستكمل الترتيبات اللازمة للحملة، انطلق بها ابنه طوسون عام ١٢٢٦هـ. ووصلت الحملة برًّا وبحرًا

---

(١) البطريق، ص٩٠ - ٩١.

(٢) انظر تفاصيلها في كتاب الرافعي، **عصر محمد علي**، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٣٧٠هـ، ص١١٢ - ١١٧. ومن بين الأمور التي قام بها محمد علي خلال تلك الفترة محاولة إضافة سوريا إلى ولايته. لكن السلطان العثماني رفض طلبه. انظر البطريق، ص٩٤ - ٩٦.

(٣) دحلان، ص٢٩٥.

إلى ينبع. وكان عدد أفرادها ثمانية آلاف مقاتل[1]. وحين وصلت إلى البلدة الحجازية المشار إليها استولت عليها دون عناء. ثم زحف طوسون من ينبع صوب المدينة المنورة؛ مُتَّخِذًا إغراء القبائل الموجودة في المنطقة بالهدايا والأموال وسيلة لتمهيد الطريق أمام قواته. واستولى على بلدة بَدْر بسهولة. غير أنه حينما اشتبك مع القوات السعودية الكبيرة بقيادة عبدالله بن سعود في وادي الصفراء تَكبَّد هزيمة ساحقة. وفَرَّ مع من نجا من جيشه عائدًا إلى ينبع. ومن حسن حظه أن السعوديين لم يَتعقَّبوا فلول قواته المنهزمة ويقضوا عليها[2].

وبعد عودة طوسون إلى ينبع انتظر حتى قدمت إليه تعزيزات جديدة من مصر، كما وصلت إليه مبالغ كبيرة لتوزيعها على رجال القبائل. وقد نجح في استمالة بعض رؤساء قبيلتي حرب وجهينة الذين كانوا في الجهات المحيطة بوادي الصفراء[3]. وكانت القوات السعودية قد انسحبت من تلك الجهات بعد انتصارها العظيم على طوسون؛ معتقدة، فيما يبدو، أن الحامية التي تركتها في المدينة المنورة كافية لدرء الخطر عنها. وهكذا باجتذاب بعض فئات القبائل، وخُلوِّ الطريق نسبيًّا من المدافعين السعوديين، وصل طوسون إلى المدينة، وحاصرها. وقد استعمل في حصارها المدافع والمتفجرات. ومن سوء حظ الحامية السعودية الموجود فيها أن سكان المدينة كانوا، بصفة عامة، لا يُكنُّون مَودَّة لقادة الدِّرْعيَّة. بل إنهم كانوا يضمرون كرهًا لهم. ولذلك تعاونوا مع الجيش الغازي ضد رجال الحامية السعودية حتى أصبحت في موقف حرج، وانتشر المرض بين أفرادها، واضطرت إلى الاستسلام في ذي القعدة سنة ١٢٢٧هـ[4].

---

(١) عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص٣٠٣.

(٢) انظر تفصيلها لدى ابن بشر، ج١، ص٢٠٧ - ٢١١؛ وفي كلام عبدالرحمن بن حسن، حفيد الشيخ محمد، الذي كان مع الجيش السعودي، **الدرر السنية**، ج٩، ص٢٢٢ - ٢٢٤؛ وقارن ذلك بعبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص٣٠٤ - ٣٠٦.

(٣) الرافعي، ص١٣٧.

(٤) ابن بشر، ج١، ص٢١٢ - ٢١٣.

وكان لاستيلاء طوسون على المدينة المنورة أثر كبير في رفع معنويته، وبَثِّ الحماسة والثقة في نفوس أفراد جيشه، وزيادة المُنضمِّين إليه من رجال القبائل، مما فتح الطريق أمامه للتوغل في بقية الحجاز. وبالاتفاق السرِّي مع الشريف غالب تَوجَّه بقواته إلى جدة، ودخلها دون مقاومة، ثم اتَّجه إلى مكة المكرمة، ودخلها بمساعدة الشريف غالب بعد أن تركتها الحامية السعودية بأمر من عبدالله بن سعود الذي كان معسكرًا خارج البلدة. وكان دخول طوسون لمكة في شهر المُحرَّم سنة ١٢٢٨هـ. وبعد دخوله إيَّاها انسحب عبدالله بن سعود من معسكره خارجها إلى العُبَيْلاء ثم ترك هذه البلدة وتَوجَّه إلى الخُرْمة. ومن الواضح أن اليأس قد دَبَّ في نفوس بعض قادة السعوديين بالنسبة لموقفهم في الحجاز. وكان عثمان المضايفي أحد هؤلاء، ذلك أنه لم يبق في الطائف بعد انسحاب عبدالله بن سعود، بل تَوجَّه إلى رَنْية. فأرسل طوسون فرقة من جيشه استولت على الطائف، وتَوجَّه إلى هذه البلدة بصحبة الشريف غالب[1].

وهكذا دخلت المدن الحجازية الكبيرة تحت نفوذ طوسون، وحققت الدولة العثمانية الهدف الأساس من أهدافها باستعادة الحرمين الشريفين من السعوديين. ومن الواضح أن تعاون زعماء المدن الحجازية وزعماء القبائل في المنطقة مع جيش الغزاة كان أَهمَّ الأسباب التي سهلت لهم التَّغلُّب على القوات السعودية. على أن الدولة السعودية ظلَّت قوية. فهي وإن فقدت الحجاز فإنها كانت تحتفظ بالمناطق الأخرى التي تثق بولاء سكانها إلى درجة كبيرة.

ولقد شَجَّع طوسون ما أحرزه من نجاح في الحجاز على محاولة ضم مناطق أخرى توسيعًا لنفوذه، ومحافظة على ما استولى عليه. ولذا بعث ثلاث

---

(١) دحلان، ص٢٩٥ - ٢٩٦؛ ابن بشر، ج١، ص٢١٣ - ٢١٥؛ عبدالرحيم، الدولة السعودية، ص٣١٠ - ٣١١.

مئة رجل إلى الحناكية ليكونوا طليعة لجيشه صوب نجد. ثم بعث فرقة من جيشه إلى تُرَبة للاستيلاء عليها[١]. فماذا فعل السعوديون؟

قاد الإمام سعود قوات، واتَّجه إلى الحناكية حيث حاصر رجال طليعة طوسون، وأجبرهم على الاستسلام، وبعد أن استسلموا له أرسلهم مخفورين إلى العراق[٢]. ثم قام بهجمات ناجحة على القبائل التي وقفت مع جيش طوسون، واستطاع أن يصل بقواته إلى ضواحي المدينة المنورة ووادي الصفراء، ثم عاد إلى الدِّرْعيَّة. وانطلق من نجد جيش سعودي آخر تدعيمًا للجبهة الجنوبية، واتَّخذ من بلدة تُرَبة مركزًا له. ولما اشتبك هذا الجيش مع الفرقة التي بعثها طوسون إلى هناك استطاع - بإمدادات من بيشة وما حولها - أن يحقق انتصارًا عظيمًا على خصومه[٣].

وبعد أن انتصرت القوات السعودية في تُرَبة بدأ عثمان المضايفي بمهاجمة الطائف ذاتها، واتَّخذ من بِسْل مقرًّا لقيادته. فسار إليه الشريف غالب بقوات كبيرة، وحاصره. فهرب عثمان من هناك، لكن أناسًا من المتعاونين مع الغزاة أمسكوه وسَلَّموه إلى غالب. فبعثه إلى مصر، ثم بُعِث به من هناك إلى العاصمة العثمانية حيث قُتِل[٤].

وإدراكًا من محمد علي لما طرأ على موقف قواته من ضعف أمام القوات السعودية قَرَّر أن يقود بنفسه إمدادات جديدة لَعَلَّه يَتمَّكن من تغيير الوضع

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢١٥ - ٢١٦.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢١٥، وكان إرسالهم إلى هناك بخفارة أمير جبل شمَّر محمد بن عبدالمحسن.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢١٥ - ٢١٦؛ عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، س٣١٢.

(٤) دحلان، ج٢، ص٢٩٦؛ ابن بشر، ص٢١٦ - ٢١٧؛ العجلاني، **عهد سعود الكبير**، ص١٣٠.
وتذكر بعض المصادر أن الإمام سعود بن عبدالعزيز عرض دفع فدية كبيرة لإطلاق سراح عثمان، كما عرض الصلح مع محمد علي. لكن عرضه لم يُقبَل. انظر الجبرتي، **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، الطبعة الثانية، دار الجيل ببيروت، ١٩٧٨م، ج٣، ص٤٢٠. ودحلان، ج٢، ص٢٩٦.

لصالحه. ولما وصل إلى الحجاز كان من أَوَّل الأعمال التي قام بها القبض على الشريف غالب ونفيه عن البلاد. وعَيَّن مَحلَّه في شرافة مكة ابن أخيه يحيى بن سرور[1]. وأخذ يُعدُّ قواته إعدادًا جيدًا حتى اعتقد أنها أصبحت قادرة على محاربة السعوديين، وزحفت تلك القوات بقيادة طوسون ومعه الشريف راجح، أحد كبار الأشراف وشجعانهم. إلى تُرَبة، لكنها فشلت في الاستيلاء عليها، وعادت إلى الطائف بعد أن تَكبَّدت خسائر فادحة[2].

ومن الواضح أن الأشراف شَكُّوا في نوايا محمد علي بعد غدره بالشريف غالب، وخافوا أن يكون مصيرهم مثل مصيره. ولذلك هرب الشريف راجح وانضم إلى القوات السعودية في تُرَبة. ولَعلَّ هروبه حدث وقوات محمد علي في طريقها إلى هذه البلدة. ثم خرج الشريف يحيى بن سرور من مكة؛ مظهرًا أنه سيغزو بعض القبائل المعارضة له، وهرب إلى تهامة[3].

وكان محمد علي قد أرسل قوات لتستولي على القُنْفذة، فدخلتها دون صعوبة. لكن القوات السعودية انتزعتها منها وكَبَّدتها خسائر فادحة[4]. وبذلك ازداد موقفه حرجًا. وتراجعت قواته إلى الطائف. لكن إمدادات جديدة قدمت إليه من مصر، كما وصلت إليه من هناك مبالغ مالية ضخمة، فأخذ يُدرِّب قواته تدريبًا جيدًا، ويغدق الهدايا والأموال على رجال القبائل[5].

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٢١؛ دحلان، ج٢، ص٢٩٧ - ٢٩٨. وكان مصير غالب أن توفي منفيًّا في سلانيك. المصدر الأخير نفسه، ص٢٩٩.

(٢) ابن بشر، ج١، ص٢٢٢.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٢١؛ دحلان، ج٢، ص٣٠٠.

(٤) ابن بشر، ج١، ص٢٢٣.

(٥) عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص٣١٧ - ٣١٨؛ الرافعي، ص١٤٤.

وكانت وفاة الإمام سعود بن عبدالعزيز سنة ١٢٢٩هـ، من الأمور التي أضعفت الجبهة السعودية نوعًا ما[١]. ذلك أن ابنه عبدالله، الذي خلفه في الحكم، لم يكن مثله صرامةً وسداد رأي؛ وبخاصة في الأمور العسكرية، ولم يكن مثله، أو قريبًا منه، في هيبة القبائل له. ومع ذلك فإن القوات السعودية كَبَّدت قوات محمد علي هزيمة كبيرة بعد وفاة الإمام سعود بقليل[٢] على أن الوضع سرعان ما تَغيَّر لصالح حاكم مصر. وحينما تقابل سنة ١٢٣٠هـ، مع السعوديين في بِسْل انتصر عليهم. فتحرَّك بقواته حتى استولى على رَنْية وبِيْشة وتُرَبة. كما استولى على مناطق أخرى من عسير وتهامة[٣].

وبعد الانتصارات السابقة اطمأن محمد علي إلى سلامة موقف قواته في الجزيرة العربية، فعاد إلى مصر. ولَعلَّ من أسباب سرعة سفره إلى هناك الظروف التي أَلَّمت ببلاده حينذاك[٤].

وبينما كانت العمليات العسكرية تدور في منطقة عسير بين قوات محمد علي والقوات السعودية كان طوسون يَتقدَّم في غربي نجد حتى وصل إلى القصيم. وكان الإمام عبدالله بن سعود على علم بتحركاته، فاتَّجه إلى تلك المنطقة لصده عنها. وهناك حدثت مناوشات بين الطرفين. وبدا لكُلٍّ منهما أنه لن يُحقِّق انتصارًا على الآخر. ولذلك مالا إلى الصلح. وتختلف الروايات حول من بدأ بطلبه. لكن المهم أن طوسون وعبدالله تَوصَّلا في نهاية الأمر إلى مشروع صلح

---

(١) وكان مولده سنة ١١٦٥هـ.

(٢) لم تتمكن القوات السعودية من صد الهجمات الموجهة ضدها فقط، بل بدأت تهاجم مواقع الغزاة حتى اقتربت من الطائف ذاتها. انظر ابن بشر، ج١، ص٢٤٢ - ٢٤٣؛ الرافعي، ص١٤٤ - ١٤٥.

(٣) ابن بشر، ج١، ص٢٤٤ - ٢٤٧؛ عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص٣١٩ - ٣٢٠.

(٤) ابن بشر، ج١، ص٢٤٨ - ٢٤٩؛ الرافعي، ص١٤٨. ومن هذه الظروف -كما يذكر الرافعي- مؤامرة لطيف باشا ضده، وإشاعة هرب نابليون من منفاه واحتمال محاولته غزو مصر من جديد.

تَضمَّن -كما روى ابن بشر- إيقاف الحرب بين الطرفين، وجلاء قوات الغزاة عن نجد، وتأمين تَنقُّل أتباع أَيٍّ من الطرفين في بلاد الآخر[1]. ومن الواضح أن هذا المشروع كان مرهونًا بموافقة محمد علي. ذلك أن عبدالله بن سعود بعث مندوبين إلى القاهرة لأخذ موافقة حاكمها عليه[2]. وكان ذلك سنة ١٢٣٠هـ.

على أن طوسون انسحب من نجد، على أَيِّ حال، وعاد إلى مصر. ولكن محمد علي لم يوافق على ما تَمَّ بين ابنه طوسون والإمام عبدالله بن سعود. وأَصرَّ على أن يقدم إليه هذا الإمام ليرسله إلى السلطان العثماني، وأن يحضر معه ما سبق أن أخذه أبوه سعود من نفائس كانت موجودة في الحجرة النبوية الشريفة[3]. ومن الواضح أن الإمام عبدالله أدرك ما يَترتَّب على ذهابه إلى مصر، فرفض ذلك. وأخذ الطرفان يستعدان للحرب من جديد.

حينما استكمل محمد على استعداداته لحملة جديدة ضد الدولة السعودية أسند قيادتها إلى ابنه ابراهيم. وتَوجَّهت تلك الحملة من مصر، فوصلت الحجاز في ذي القعدة سنة ١٢٣١هـ[4]. وقد أجرى إبراهيم قرب المدينة المنورة مناورات عسكرية، كان الهدف منها إظهار قوته أمام القبائل، ليبقى من كان مواليًا لأبيه على ولائه، ولينضم إليه من لم يكن مواليًا من قبل. وتَحقَّق له هذا الهدف بدرجة

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٥٠.

(٢) المندوبان هما عبدالله بن بنيان، وعبدالعزيز بن حمد بن إبراهيم، انظر ابن بشر: ج١، ص٢٥١. وقد حاول هذان المندوبان أن يقنعا محمد علي بحسن نوايا عبدالله بن سعود تجاهه وتجاه الدولة العثمانية، فلم ينجحا في إقناعه.

(٣) كان سعود بن عبدالعزيز قد أخذ تلك النفائس عند استيلائه على المدينة، وباع بعضها، وأنفق ثمنه على فقراء البلدة. وقد ذكر ذلك عدة كتاب من بينهم عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن، الذي ذكر بأن سعودًا لم يقم بما قام به إلا بعد أن أفتاه علماء المدينة بوجوب القيام به. انظر: **مجموعة الرسائل والمسائل النجدية**، ج٣، ص٤٥١.

(٤) عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص٣٣٠.

كبيرة. فانضمَّت إليه فئات من حرب، ومطير، وعتيبة، وعنزة[١]. ثم زحف مُتَّجِهًا إلى القصيم.

وفي أثناء ذلك كان الإمام عبدالله بن سعود قد قام بإجراءات تأديبية ضد من وقف من أهل القصيم مع طوسون، أو تعاون معه بأي شكل من الأشكال[٢]. وحينما سمع أنباء وصول حملة إبراهيم إلى الحجاز وتحركها إلى القصيم جمع ما أمكنه جمعه من قوات، واتَّجه إلى تلك المنطقة لصد الحملة عنها.

وقبل أن يَتوغَّل إبراهيم كثيرًا في أراضي القصيم اشتبكت قواته مع أتباع الإمام عبدالله عدة اشتباكات. وكانت الغلبة لقوات إبراهيم[٣]. وبعد ذلك واصل هذا القائد زحفه حتى وصل إلى بلدة الرس، وبدأ يحاصرها. أما الإمام عبدالله فقد اتَّخذ من بلدة عنيزة مقرًّا لقيادته في المنطقة. وكانت الرس محصنة تحصينًا جيدًا. وقد أبدى أهلها، ومن بعثهم الإمام لمساعدتهم، شجاعة عظيمة؛ إذ صمدوا أمام قوات إبراهيم، بكل ما تملك من قوة واستعداد، أكثر من ثلاثة أشهر ونصف. بل إنهم ألحقوا - خلال الحصار - بتلك القوات خسائر تفوق كثيرًا ما ألحقته بهم[٤].

ومن المرجح أن القلق أخذ من نفس إبراهيم مأخذه، لأن فشله في الاستيلاء على الرس، رغم حصاره الطويل لها، مما يضعف الأمل في القضاء

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٥٥.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٢.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٢٥٦.

(٤) استمر حصار إبراهيم للرس من الخامس والعشرين من شعبان إلى الثاني عشر من ذي الحجة سنة ١٢٣٢هـ، وقتل من جيشه- كما يقول ابن بشر (ج١، ص٢٥٧) أكثر من ٦٠٠ رجل، بينما قتل ممن كانوا في الرس حوالي ٧٠ رجلًا، على أن الرافعي يقول (ص١٥٧): إن قتلى جيش إبراهيم كانوا ٢٤٠٠ جندي وقتلى الرس ١٦٠ رجلًا.

على الدولة السعودية، لكن من المرجح أيضًا: أن أهل الرس بعد ذلك الحصار قلَّت لديهم المؤن، وباتوا ينتظرون حَلًّا للموقف. فطلبوا من الإمام عبدالله أن يَتقدَّم لمناجزة العدو، أو يسمح لهم بالصلح معه[1].

ومن الواضح أن الإمام عبدالله بن سعود قد أدرك عدم قدرته على القيام بما طلب منه أهل الرس من مناجزة لقوات إبراهيم، فسمح لهم بأن يتصالحوا معه. ولم يكن شيء أَحبَّ إلى قائد القوات الغازية في تلك الظروف من حَلٍّ يتيح له التقدم نحو هدفه الأكبر، وهو الوصول إلى الدِّرعية. وتَوصَّل في نهاية الأمر مع أهل الرس إلى صلح من بنوده أن يرفع الحصار عن البلدة. وأَلَّا يدخلها جنوده، وأن تخرج الحامية السعودية منها بأسلحتها، وأن يقف أهلها على الحياد حتى يَتقرَّر مصير عُنَيزة؛ فإن خضعت له انضموا إليه، وإلا وقفوا ضده[2].

أما الإمام عبدالله بن سعود فانسحب من عُنَيزة بعد أن ترك فيها حامية صغيرة من جيشه. وتَوجَّه إلى بُرَيدة حيث أقام يراقب سير الأحداث. وتَقدَّم إبراهيم بقواته إلى عُنَيزة، فأطاع له أهلها، وبدأ يحارب الحامية السعودية الموجودة فيها. ولما رأى قادة الحامية ضعف موقفهم صالحوه على أن يخرجوا من البلدة بأسلحتهم[3]. ولما علم عبدالله بن سعود بذلك غادر بُرَيدة إلى الدِّرْعيَّة. ولَعلَّ مغادرة عبدالله القصيم قد قضت على ما بقي لدى سكانها من أمل في المقاومة. فدخلت بقية بلدان تلك المنطقة تحت نفوذ إبراهيم دون صعوبة.

ونتيجة لما تَحقَّق لإبراهيم باشا من انتصارات في المنطقة ازداد عدد المنضمِّين إليه من رجال القبائل، وارتفعت معنويات أفراد جيشه. ثم وردت إليه

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٥٧.

(٢) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ الرافعي، ص١٥٧.

(٣) ابن بشر، ج١، ص٢٥٨. على أنَّ الرافعي يقول (ص١٥٧): إن إبراهيم أخذ أسلحة الحامية. ويبدو أن ذلك هو الصحيح؛ إذ إن موقفه كان قويًّا.

إمدادات جديدة من مصر. فتَحرَّك من القصيم، وأخذ معه عددًا من زعماء بلدانها، ليضمن عدم ثورة تلك البلدان عليه وقطع مواصلاته مع الحجاز. واتَّجه نحو الوَشْم حتى وصل إلى قاعدته شقراء. وسَلَّط عليها نيران مدفعيته حوالي أسبوع حتى طلب أهلها منه الأمان. وقد أجابهم إلى ذلك على أن يُسلِّموا إليه ما عندهم من أسلحة، ويبيعوا ما لديهم من غذاء إلى جنوده[1].

وباستيلاء إبراهيم باشا على الوَشْم ازدادت خشية النجديين منه، ثم تابع زحفه نحو الدِّرْعيَّة. وفي طريقه إليها حاصر بلدة ضرما، التي كانت فيها قوات من جيش الإمام عبدالله لمساعدة أهلها ضد الغزاة. وقد دام حصاره لها أربعة أيام دارت خلالها معارك ضارية قُتِل فيها عدد كبير من كلا الجانبين[2]. لكن إبراهيم تَمكَّن في نهاية الأمر من احتلالها، فأصبحت الطريق إلى الدِّرْعيَّة مفتوحة أمامه.

وفي غُرَّة جمادى الأولى من عام ١٢٣٣هـ وصل إبراهيم بقواته إلى مشارف الدِّرْعيَّة. وكان الإمام عبدالله بن سعود قد بذل كل ما استطاع لتحصينها، ورَتَّب رجاله وأتباعه الترتيب اللازم للدفاع عنها[3]. ثم ابتدأت المناوشات بين

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٥٩؛ الرافعي، ص١٥٨. ولمزيد من التفصيلات انظر العجلاني، **عهد عبدالله بن سعود**، ص٩٢ - ٩٧. وكان أهل شقراء من المتحمِّسين لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأنصارها، كما كانوا من المحافظين على الواجبات الدينية حتى أصبح تمسكهم بها مضرب المثل. ولذا يقول أحد الشعراء:

حالف ما أسلي ولا أنسى حب سارة لين أهل شقرا يخلُّون الصلاة

وقصده أن يقول بما أن أهل شقراء لا يمكن أن يتركوا الصلاة فإنه لا يمكن أن ينسى حب محبوبته سارة، أو يسلو عنها.

(٢) ابن بشر، ج١، ص٢٦١ - ٢٦٢. ويذكر ابن بشر هنا أن من قتل من الجانب السعودي حوالي ٨٥٠ رجلًا. وقد فتك إبراهيم بأهل البلدة بعد أن استولى عليها؛ إذ «أمر بقتلهم جميعًا، عقابًا لهم على ما كبَّدوا الجيش من الخسائر. فقتلوا جميعًا». على حد تعبير الرافعي، ص١٥٩.

(٣) ابن بشر، ج١، ص٢٦٣ - ٢٦٤.

المهاجمين للعاصمة والمدافعين عنها. وبعد ثلاثة أسابيع من بداية تلك المناوشات تَمكَّن المهاجمون من احتلال المتاريس والبروج الواقعة شمالها. غير أن ذلك لم يَفتَّ في عضود المدافعين. وقد اندلعت النيران في مستودع ذخيرة إبراهيم. لكن السعوديين لم يَستغلُّوا ذلك بهجوم قويٍّ على قواته[1]. فوصلت إليه إمدادات من المناطق التي استولى عليها من نجد، كما وصلت إليه إمدادات من مصر. وبدأ يُعدُّ العُدَّة لمواصلة هجومه على الدِّرْعيَّة.

وقد دام حصار إبراهيم باشا للعاصمة السعودية أكثر من ستة أشهر. وأبدى أتباع الإمام عبدالله خلال ذلك الحصار شجاعة فائقة، وتَكبَّدوا -كما كَبَّدوا عدوَّهم- خسائر فادحة. لكن موقف أولئك الأتباع كان يضعف تدريجيًّا بسبب الحصار في حين كان موقف قوات إبراهيم يزداد قوة بما يصل إليه من إمدادات[2].

وهكذا بدأ اليأس يَدبُّ في نفوس بعض المدافعين عن الدِّرْعيَّة. فترك جماعة منهم ميدان القتال مُتسلِّلين إلى خارج البلدة. ورغم ما وصل إليه الوضع من سوء، فإن الإمام عبدالله لم يشأ أن ينجو بنفسه ويغادر عاصمته. وكما رفض أن يكون بعيدًا عنها لدى قبيلة قحطان من قبل أن يحاصرها إبراهيم بقواته فإنه صَمَّم أن يبقى فيها خلال الساعات الحرجة من حصارها[3]. ولَعلَّه رأى في هروبه منها عارًا تهون دونه أَيُّ مصيبة. فانتصرت عوامل الشجاعة في نفسه على ما كانت تُحتِّمه الجوانب السياسية الذكية والرأي السليم. ولم تقف الحال ببعض أتباعه عند حَدِّ الهروب من الدِّرْعيَة نجاة بأنفسهم من المصير المخيف.

---

(١) الرافعي، ص١٥٩ - ١٦٠؛ ابن بشر، ج١، ص٢٧١.

(٢) لمزيد من التفصيلات انظر المصدر الأخير نفسه، ج١، ص٢٦٤ - ٢٧٤.

(٣) كان قد أشير على الإمام عبدالله بعد انسحابه من القصيم أن يحمل ما له من الدرعية ويذهب إلى قحطان، ويعلِّق على هذا الشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن بقوله: «فلو شاء القدر لم يظفر به عدوُّه.. ولو قُدِّر غير ذلك لكان». انظر الدرر السنية، ج٩، ص٢٢٦.

بل إن منهم من خرج منها. وقصد إبراهيم باشا. وكان من هؤلاء أحد القادة المشهورين، غَصَّاب العتيبي. ومهما كان السبب وراء اتِّخاذه ذلك الموقف، فإن ما قام به كان ضربة قاسية للمدافعين السعوديين وتقوية لعزيمة إبراهيم. وكان من نتائجه تقريبه مدفعيته من أسوار البلدة، وتركيز نيرانها عليها[١].

وفي نهاية الأمر اضطر الإمام عبدالله بن سعود إلى أن يخرج إلى إبراهيم باشا ليفاوضه حول إنهاء الحرب. واتَّفق الطرفان على ذلك، كما اتَّفقا على أن يُسلِّم عبدالله نفسه لإبراهيم ليبعث به إلى أبيه في مصر. وقد طلب الإمام من إبراهيم ألَّا يَضرَّ أحدًا من سكان الدِّرْعيَة، وألَّا يُخرِّبها. فوعده بتلبية ما طلبه منه[٢]. وكان استسلام الإمام عبدالله في الثامن من ذي القعدة سنة ١٢٣٣هـ (٩ سبتمبر ١٨١٨م) [٣]. وباستسلامه انتهت آخر حلقة من حلقات الدفاع البطولي الذي قام به السعوديون. وانتهت دولتهم الأولى. وقد قُتِل في معارك الدرعية كثيرون من الطرفين. ومن بين القتلى السعوديين واحد وعشرون من أفراد الأسرة الحاكمة[٤].

وقد بُعِث بعبدالله بن سعود إلى مصر حيث قابل حاكمها محمد علي، الذي أعجب برباطة جأشه وشجاعته المعنوية، ثم أُرسِل من هناك إلى عاصمة الدولة العثمانية، وحُوكِم في تلك العاصمة محاكمة صورية. فقُتِل في شهر صفر سنة ١٢٣٤هـ[٥].

---

(١) ابن بشر، ج١، ص٢٧٣، وكان- كما يقول ابن بشر- رئيس الخيَّالية في الدرعية.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص٢٧٥؛ عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص٣٤٣.

(٣) ابن بشر، ج١، ص٢٧٥؛ عبدالرحيم، **الدولة السعودية**، ص٣٤٣.

(٤) ابن بشر، ج١، ص٢٧٦.

(٥) العجلاني، **عهد عبدالله بن سعود**، ص١٤٠ - ١٤٢. ولمزيد من التفصيلات عن حرب الدرعية ومصير الإمام وطريقة التحقيق معه. انظر المصدر نفسه، ص١١٣ - ١٤٨. وفي هذا المصدر، أيضًا، وثائق مهمَّة تتعلق بتاريخ تلك الفترة. كذلك توجد وثائق مهمة في كتاب **الدولة السعودية**، لعبدالرحيم.